

ضريبة الثقافة: قراءة في رواية (صمت الفراغ) لإبراهيم سعدي

Culture Tax: A Reading of Ibrahim Saadi's Novel *The Silence of the Void*

نادية سلطان¹

¹ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، جامعة باتنة 1، Nadia.Soltane@univ-batna.dz

2025/04/25	تاريخ القبول	2024/10/02	تاريخ الإرسال
------------	--------------	------------	---------------

ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية التي تختص برواية (صمت الفراغ) لإبراهيم سعدي إلى الإحاطة بصورة المثقف في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر إبان أزمة التسعينيات؛ أزمة العشرية السوداء التي عدّت الثقافة خطيئة والوعي مخالفة لا بد لها من ضريبة، فكان العقاب ببث الهلع والذعر في أنفُس هؤلاء المثقفين، وقتلهم متى تسنى للتيار التكفيري ذلك.

وعلى هدي من هذا فإنّ الدراسة توصلت إلى جملة من النتائج تتحدد في كون المثقف المتخيل في رواية (صمت الفراغ) هو تمثيل حيّ للمثقف الحقيقي أيام العشرية السوداء، وأنه دفع ضريبة ثقافته للآخر المتطرف، وكفّر عن خطيئة وعيه بروحه ودمه.

الكلمات المفتاحية: الثقافة؛ الموت؛ العشرية السوداء؛ صمت الفراغ؛ إبراهيم سعدي.

Abstract

This research paper examines the novel *The Silence of the Void* by Ibrahim Saadi, aiming to explore the image of the intellectual in contemporary Algerian narrative discourse during the crisis of the 1990s.

The crisis of the Black Decade regarded culture as a sin and awareness as a transgression that had to be punished; consequently, fear and panic were spread among intellectuals, and many were killed whenever the takfiri movement was able to do so.

Based on this, the study reached a set of findings, most notably that the intellectual portrayed in *The Silence of the Void* represents a vivid image of the real intellectual during the Black Decade, having paid the price of his culture to the extremist "other" and atoned for the "sin" of his awareness with his life and blood.

Keywords: Culture; Death; Black Decade; The Silence of the Void; Ibrahim Saadi.

1. مقدمة:

لَمَّا كانت الثقافة نعمة ربّانية تدرّ على العبد والأمة منفعة وخيرا؛ أضحت أيام التسعينيات الدموية نقمة لا تعود على صاحبها بغير الذبح والتنكيل، فصوت المثقف آنذاك كصوت المرأة تماما؛ لا بدّ أن يُلجم ويكتمم ويُخرس... فمتى ما علا تعالت معه أصوات مضادة تحوطه من كل جانب تخويفا وتهديدا.

إنّ الثقافة يومذاك قرينة الموت، بل هما وجهان لعملة مأساوية واحدة؛ فلا نكاد نقول الثقافة حتى نقول الموت، وما المثقف الحق وقتئذ إلا مشروع جثة مُنكّلة، أو مشروع هارب من مصيره الأسود بخوف وذعر، فلا نكاد نجد مواطنا مثقفا في التسعينيات من عمر هذا الوطن الهش إلا وهو يعاني ويقاسي ويصارع لأجل البقاء.

وعليه فإنّ هذه الدراسة الموسومة: (ضريبة الثقافة: قراءة في رواية (صمت الفراغ) لإبراهيم سعدي) تهدف إلى تسليط العدسة النقدية على استحضار صورة الموت والفناء كضريبة وعقاب على خطيئة الثقافة في جنس الرواية - وما ذلك الاستحضار غير تصوير للوقائع والمجريات الحقيقية في العالم الموازي الواقعي الذي شهدته الجزائر في إحدى محطاتها الحالكة - وهذا الهدف البحثي يمكن بلوغه بالإجابة عن الإشكالية البؤرية الآتية:

ما الثقافة والموت؟ وما علاقتهما ببعض في التسعينيات؟ ثم كيف صوّر إبراهيم سعدي فجائع العشرية السوداء وأزمة المثقف في منجزه (صمت الفراغ)؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية لا بد للدراسة من الاتكاء على منهج من المناهج التي من شأنها توجيه مسارها حتى بلوغ النتائج المتوخاة، وأكثر هذه المناهج تناسبا مع طبيعة الموضوع هو المنهج التحليلي الوصفي بأدواته وآلياته؛ الذي من خلاله تتعاطى إحدى أهم

روايات إبراهيم سعدي وتحليل ما جاء في متنها حول تيمة المثقف وحتمية علاقته واقتترانه بالموت.

ولبلوغ مثل هذه الضالة البحثية المنشودة لا بد من المرور بجملته من المحطات؛ التي تتوزع عبر صفحات العمل وكل محطة تكمل المحطة التي تليها؛ ذلك التعاضد بينها يتمخض عنه متن متماسك متين؛ وهذه المحطات تتوزع على النحو الآتي:

2. بين الثقافة والموت:

شهدت المتون الروائية الجزائرية الجديدة تطرقا واضحا إلى العلاقة الطردية بين الثقافة والموت، وكيف أنّ الموت يلاحق الفرد المثقف كظله في فترة زمنية شهدت فيها البلاد من الويلات ما شهدت، فانعكس ذلك على النصوص والمتون، فما حيلة المبدع المعاش لتلك الأزمة غير الكتابة والتصوير بالحكي؟

ولأنّ المنجزات التخيلية تتعاطى تيمة المثقف التسعيني وأزمته، إذّا لا بد وأنّها تقتطع من الواقع المعيش شيئا كثيرا من صحته وفعليته، ومما كان واقعا وتحول سردا متخيلا ثنائية الثقافة والموت التي تأتي مفصلة كما الآتي:

1.2 في ماهية الثقافة:

يعد مصطلح الثقافة من أعمق المصطلحات التي لاقت إقبالا من قبل المفكرين والمنظرين، ومن أهميتها تلوح في أفق الساحة الفكرية كثير من التعريفات اللغوية والاصطلاحية، والدراسة هنا ستركز على المعنى الاصطلاحي والماهية العميقة، ومن تلك التعريفات ما ذهب إليه كتاب (أنطقة المحرم) في كون الثقافة "نتاج إنساني تاريخي، فمن حيث هي؛ سلّم قيم، وأنماط سلوك، ومفاهيم وتصورات وعقائد ورؤى حضارية، ونتائج علم وأدب وفن، وأشكال علاقات فهي إذن رديفة للوجود الإنساني. إنها المعرفة المشتبكة مع واقع تحاول استشفافه وفضحه وتهديده. وأن تكون معرفة لا تساوم ولا تتراجع، ولا تنعزل، بل تقف بالمرصاد لتسهم بولادة الجديد الذي عسرت ولادته، وموت

الذي لا بد من موته. أما الثقافة المتواطئة فلا يمكن إلا أن تكون ميتة سلفاً" (رحيم، 2013، صفحة 25).

إذاً نحن أمام ثقافة وثقافة مضادة: إيجابية تحمل شتى معاني الجمال في الوجود الإنساني، وسلبية – سُميت بالمتواطئة - معبأة بحمولات النقيض؛ أي أنها تحمل القبح في تفاصيلها، وليس لها مصير ثانٍ غير الموت والاندثار.

أما الثقافة عند المفكرين والدارسين الجزائريين وتحديداً عند مالك بن نبي ف"تتعرف بصورة عملية على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه؛" فهي على هذا التعريف المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته" (بن نبي، 1984، صفحة 74).

إذاً لما كانت الثقافة قرينة الذوق الأدبي والفني، والجمال الوجودي، ها هي تؤثر في الإنسان تأثيراً مباشراً؛ أين نراها تشكّل طباعه وتصلّل شخصيته، وهي بهذا الوصف تحمل كل دلالات الإيجابية، ومتى ما حدث العكس تجردت الثقافة من ماهيتها ومعانيها الكبرى وغدت مجرد مصطلح خاوٍ لا روح قيمية تعتره.

لكن للأسف لما كانت الثقافة قرينة الوجود الإنساني الجمالي أصبحت في عشرية ما رديفة للقبح، ومن هنا نقف وقفة تنظيرية عند علاقتها بالفناء الذي يلخص كل أشكال البشاعة في الكون.

2.2 في ماهية الموت:

بداءة وقبل الخوض في حضور تيمة الموت في الأثر الإبداعي الأدبي شعره وسرده، لا بد من الحديث عن ماهية الموت عموماً فنقول: "الموت شرط الحياة، وهو في المقابل نفي لها، وبمعنى من المعاني نفي إيجابي لها، لأنه يقوم بوظيفة وضع الحد؛ والحد يعطي شكلاً لما يحده، والعجى لا يكون حياً إلا بشرط أن يكون منذوراً للموت" (المساوي، 2013، صفحة 11)، وفي علاقة الإنسان بالموت؛ نقول: إنّ "علاقة الإنسان بالموت علاقة حياة،

وإثبات أحدهما يعني في الوقت نفسه إثبات الآخر، وهذه العلاقة الجدلية تمنح الإنسان فرصة إدراك النقيض. فتبقى رغبته في الحياة أكثر حضورًا واستحواذًا على مشاعره وفكره، لأنه يعرف أن الموت قضاء على ما يعرفه، حتى وإن مارست الحياة قسوتها عليه، وأحس فيها بالاعتراب نتيجة عوامل كثيرة أهمها العامل النفسي، أما الموت فلا يعرف تجربته ولم يعيشه من قبل. فتظل تجربته مجهولة غامضة" (هلال ع.، 2005، صفحة 15).

أما عن حضور هذه التيمة – تيمة الموت - في الأعمال الإبداعية فكان حضورا لافتا، وفي ذلك نذهب إلى أنه أولا وقبل الخوض في الموت كتيمة روائية اتكأ عليها كل روائي عايش الأحداث وقُجِع بها لا بد من الإشارة إلى أنّ هذه التيمة تبنّتها الشعراء منذ بطون العصور، لما كانت الغارات والحروب التي تمتد لمئات السنين، فنجد الشعراء الجاهليين وصفوا قبح الموت في أبياتهم ومقطوعاتهم "فقد سبق وأن حظي هذا الموضوع بمنزلة هامة في أقدم المقاطع الشعرية التي وصلت إلينا. أوليست المراثية (أو بكاء الأموات) من أقدم أغراض الشعر العربي؟" (عبد السلام، 2017، صفحة 12) وقد رأى الشعراء يومذاك أن الصورة التشبيهية الأقرب للموت هي تشبيهه بالحيوانات المفترسة، فاهتموا به "بوصفه ذئبا يفتك بالإنسان ويقض مضجعه، ويأتي على حياته، وجاءت قصائدهم وثائق تكشف لوعتهم وقلقهم وتأملمهم لذواتهم وعالمهم الذي يعيشونه، فأصبحوا مسكونين بالصراع الوجودي الدائم" (هلال ع.، 2005، صفحة 11).

إلا أنّها وبعد أن هدأت الأوضاع عادت لتُفجّع وتؤلّم من جديد، مع الأدب الحديث بعد أن "ازداد انشغال الشعراء بقضية المصير الإنساني، حيث تعددت أدوات البطش وتفاقمت حدتها، وأصبح الشاعر محاطا بالموت في كل معطيات الحياة. يتنفسه أينما وجد" (هلال ع.، 2005، صفحة ص11)، لكن هذه التيمة خرجت عن سيطرة الجنس الشعري، وهذه المرة بحكم أنّ الرواية "صارت حسب عبارة (علي الراعي) "ديوان العرب المحدثين"" (فريجات، 2000، صفحة ص06)، فقد كانت الأسبق إلى تبنّيها

واحتضانها والقول فيها باستحضار شخصيات وفواعل من وحي الخيال؛ من شأنها حمل الواقع بثقله عبر حركيتها، ومن ذلك الثقل الواقعي الذي أرق الإنسان نجد تيمة الموت، "ومما هو معلوم أنّ الموت عجيبة العجائب وأتته المصدر الأساسي للرعب البشري الأكبر والباعث الأول للقلق النفسي - الوجودي الذي عانى منه الإنسان، ولا يزال، في كل زمان ومكان" (عبد السلام، الموت في الشعر العربي، 2017، صفحة 06).

هكذا التحمت صورة المنية مع لبنات الأعمال الإبداعية شعرا ونثرا، وكانت تيمة رئيسة لمختلف الخطابات بخاصة الروائية منها، أما على صعيد الأدب الجزائري فنخص بالرواية التسعينية؛ لأنها اختصت بمخلفات هذه العشرية السوداء في جوها العام والحمراء بالرجوع لما أسألته من دماء الأبرياء.

3. صمت الفراغ وخطابا الثقافة والموت:

ستكون للدراسة - في هذه المحطة الإجرائية - وقفة مع شقين اثنين كل منهما على حدة، الثقافة وورودها في الخطاب الروائي لدى إبراهيم سعدي، ثم ستعرج إلى الحديث عن العقوبة التي يتلقاها المثقف أيام التسعينيات والمتبدية في عقوبة الموت على وجه التحديد نظير إعلاء صوت فكره وتبنيه للحقيقة؛ وهي أكثر عقوبة منقّدة يومذاك؛ لأنّ عقوبة السجن التي تعد بديلا في بعض الأحيان لا تخرس الأصوات ولا تكمم الأفواه بالشكل الكافي كما تفعل عقوبة الموت؛ فكم من مثقف سجين اخترق صوته الزنازين والجدران ليلامس العقول والقلوب.

1.3 وشاية الثقافة:

أخذت الشخصية نصيبها الوافر من اهتمام الدارسين والمنظرين، فهي إحدى أهم ركائز العملية السردية، وهي في تعريفها العام "مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة" (هلال م.، 1997، صفحة 526) وحاضنة تلك التقلبات الحاصلة والتغيرات

الراهنه؛ نظرا لكونها ذات طبيعة سيكولوجية متقلبة لها قدرة استيعاب التحولات والانفعالات.

أما في الخطاب قيد الدراسة فتطالعنا الشخصية المثقفة، من خلال شخصية عبد الحميد بوط وعديد من الشخصيات الروائية التي لاقت مصرعها على أيدي الجماعة الإرهابية؛ بعد أن أوشت بها ثقافتها، سواء من خلال ما كتبتة من تقارير أو من مظهرها الخارجي؛ فالمثقف مختلف و متميز شكلا وفكرا، ومن هذا المنطلق يسعنا القول إنّ هذه الشخصيات التي تبنتها الرواية قد تميّزت بثقافتها ووعيمها تجاه ما يحدث في الوطن من أحداث وتقلبات؛ فلا أقدر على معايشة الواقع معايشة مباشرة وتقديم قراءات وحلول للراهن من الإنسان المثقف؛ ذلك الذي وبسبب ثقافته ووعيه المفرط وقف في وجه السلطة الجائرة والإرهاب وفي وجه كل جهة من شأنها إغراق المجتمع والسقوط به في هاوية المآسي التي ستقضي بدورها على قيمه ومبادئه وتوجهه.

ومن هذا المنطلق نقول بأنّ الخطاب الروائي التخيلي (صمت الفراغ) قد ذهب إلى ذكر مجموعة من المثقفين الذين اشتغلوا في الصحافة، والصحافة كما نعرف جميعا من أكثر المهن تعرية للواقع ونشر نواقصه على حبل الجرائد في شكل مقالات، ومن تلك الشخصيات المثقفة التي أدّت دورها الثقافي والاجتماعي على أكمل وجه شخصية الصحفي عبد الحميد بوط، ذلك المثقف الذي جنت عليه ثقافته على الرغم من أنه حاول مرارا وتكرارا إخفاء دليل إدانته بالتخلص من محفظته التي تعمل على فضحه، وفي ذلك يقول الراوي: "كالعادة، امتدت يده تلقائيا نحو محفظته الموجودة على الطاولة حيث الهاتف وجهاز الفاكس، حين ترك سريريه، استعدادا لمغادرة شقته. لكنه أعاد المحفظة إلى مكانها، ليس فقط لتذكره بأنه ما عادت له علاقة بالصحافة، بل أيضا لأنه خمن أن تلك المحفظة، رغم قدمها، ربما قد تشي بأنه مثقف، أو شيء من هذا القبيل" (سعي،

صفحة 19). ليس هذا وحسب بل تعداه إلى تغيير شكله بارتداء لباس بدوي وحمل عصا لا يتوكأ عليها بل له فيها مآرب أخرى.

من المسائل التي شاء الروائي أن يفتي ويخوض فيها كذلك مسألة سلب الحرية الثقافية، فالمثقف المعاصر مسلوب الحرية تماماً مثلما حدث مع البطل الصحفي عبد الحميد بوط الذي كتب تقريراً عن حركة جعفر بودا بشكل توصيفي عادي لا عداء فيه ولا رجم، لكن رئيس تحرير جريدة الصدق امتنع من ذلك وتصرف في التقرير دون أخذ الإذن منه، مما تسبب له في مشاكل مع جعفر بودا ومع الجماعة الإسلامية ككل، فعبد الحميد بوط كتب للجريدة "كان يوم أمس، الجمعة، بالنسبة لجعفر بودا يوماً مشهوداً. طرقات عين لبكاء اهتزت تحت وقع أقدام الألوف من أنصاره. وهو يتقدمهم، بدا كني جديد جاء لهذا الزمان. إلى أين سيقود تلك الحشود الضخمة يا ترى؟" (سعدي، صفحة 28)، إلا أن حسن خندق انتفض من هذا الكلام ووبخه قائلاً: "ما هذا عبد الحميد؟ ما هذه الصورة البراقة التي تقدمها عن ذلك اللقيط؟ أنت تقدم دعاية مجانية له. غير معقول... وفي اليوم التالي، وهو يقرأ جريدة الصدق، ألقى بأن عبارة "الألوف من أنصاره" المشيرة إلى أتباع جعفر، أصبحت "الألوف من أنصاره السذج المغرر بهم"، ووصفه إياه بـ "نبي جديد جاء لهذا الزمان" تحول إلى "نبي دجال، مزيف، يبشر برسالة إبليس". وسؤاله "إلى أين سيقود تلك الحشود الضخمة يا ترى؟" كان الجواب عنه: "... إلى ظلام القرون الوسطى" (سعدي، صفحة 28).

ومن هذا التغليب ومصادرة حرية الرأي جاء العقاب مسلطاً على عبد الحميد بوط الذي نُشر كلام باسمه وهو لم يفكر فيه حتى، وهذا العقاب يتجلى في ترصده وتعقب خطواته لقتله وهو الحلقة الأضعف في هذه الحالة؛ وفي حالات كثيرة مماثلة يظهر المثقف مغلوباً على أمره، لم تشفع له ثقافته ولم يحمه عقله بل زاده قهراً، ومن هنا يأتي العنصر الموالي ليصف لنا الحالة السيكلوجية للبطل الصحفي بعد تلقيه تهديداً بقتله؛ وليجيب عن سؤال بؤري وجوهري مؤداه:

كيف أكمل الصحفي بطل المشهد الروائي حياته بعدما تجرّأ بشكل لا إرادي وغير مقصود على جعفر بودا وجماعته الإرهابية؟ وكيف تعامل مع الوضع السوداوي؛ وضع تحميله ثقل وزر لم يقترفه بل ألقي على عاتق قلمه دون دراية منه؟

2.3 ضريبة الثقافة:

كما سبقت الإشارة فإنّ تيمة الموت تعدّ من أعمق وأوجع التيمات السردية على الإطلاق، وكثيرا ما أولاهما الشعراء والروائيون اهتماما بالغاً؛ لأنّ الواقع لم يستوعبها ففاضت منه لتستقر في المتون التخيلية، فاللغة الكتابية أقدر على التعبير عن المواجه والفجائع، وأيها فاجعة كفاجعة الموت؟

في رواية (صمت الفراغ) تحوّل الموت إلى حركة ملازمة للفعل السردى، والموت هنا موت بأبشع الصور، موت على سبيل الإجرام، فكّلما تحرّك المثقف حربيا كان له التطرف بالمرصاد، يترصّده لقتله بغية إسكاته، فصوت الحق جنابة وفعل الثقافة خطيئة لا بد لها من عقاب، وفي الخطاب الروائي عديد من الشخصيات المثقفة التي ذاقت الأمرين وتجرعت ويلات التهديدات المتواصلة بالقتل، ومن بين تلك الشخصيات شخصية عبد الحميد بوط؛ الشخصية المحورية التي مثّل بها إبراهيم سعدي لكل تلك الشخصيات الحقيقية التي جنى عليها وعمها، أما الحيز الجغرافى الذي تتحرك فيه فيتمثل في مدينة (عين لبكاء) التي يمثّل بها للجزائر عامة، فكثيرا ما استعان الروائيون بأسماء استعارية رمزية لأمكنة واقعية حقيقية، ومتى تلقف القارئ النموذجي هذه الأمكنة تأويليا تفضّن للجدلية بينها؛ وبشيء من المقارنة والإسقاط سيصل إلى نتيجة حتمية أنّ الأحياز الورقية تساوي تماما الأحياز الجغرافية الفعلية؛ بل هي بتفاصيلها ولكن بتسميات مختلفة.

ولأنّ المثقف واحد من تلك الكوكبة في المجتمع؛ تلك "النخبة المستتيرة التي لها وظيفة فكرية عقلية، تحديثية، أخلاقية وهي تشكل المرجعية الأساسية للأفكار السائدة في المجتمع، وتؤدي دورًا طليعيًا في ضبط القيم، والممارسات الاجتماعية، وتسعى

لتطويرها وتجديدها داخل أطر عقلية متماسكة في إطار نقدي يؤمن بالاختلاف والمغايرة وتعدد المنظورات والاختبارات، وتتفاعل مع الوقائع الجديدة استنادًا إلى رؤية متنوعة تقوم على النقد والتوصل والتواصل والتفاعل" (صالح، 2012، صفحة 32) فقد كان همّه أكبر وأعمق من هم الفرد العادي المتجرد من هذه الصفة التي تم تفرغها من محتواها الإيجابي وغايتها الولادة، وعليه فقد عاش المثقف أيام التسعينيات حالات الخوف والقلق من الأعين التي تترصده ومن التهديدات التي تصله، فنجده في كل مرة يظهر بثوب الخائف على نفسه، فهذا عبد الحميد بوط الشاعر والصحفي بعد أن كتب مقالات أراد بها التبصرة والتوعية حُكم عليه بالموت، ومن خوفه وحذره راح في كل مرة يشتهيه بأحد من جيرانه، ف "وضعه كمحكوم عليه أمر يجعل من التجسس على جيرانه شيئاً لا مفر منه. لكن في قرارة نفسه تساءل: "كيف يسع المرء أن يعرف الرجل الذي سيطلق عليه النار أو يطعنه بخنجر من بين آلاف الأفراد الذين تزدهم بهم هذه المدينة؟" (سعدي، صفحة 19) لقد اتسعت مساحة حيرته وتضاعف حذره حتى "أحس بأن المارة الذين كان يمشي وسطهم، ليسوا فقط مجرد قتلته المحتملين، بل أناس سيصيرون بدورهم مذبحين، ممزقين ومشوهين. الشعور بأنه كان يدب وسط مشاريع جثث، وحتى بأنه كان يسمعها تصرخ وتئن قبل أن يبتلعها صمت الموت، غمره بكل رعب. وأصل طريقه وهو لا يزال يحس بنفسه عاجزا عن رؤية المارة إلا كمقتولين وممسوخين ومتفسخين ومتفحمين... عبثا حاول أن يرى الناس كما هم، أي كمجرد بشر يسعون في الأرض. صور الموت والبشاعة استبدت به" (سعدي، صفحة 23)، وسيطرت على حالته السيكلوجية، وجعلته يتوهم ويتخيل أحداثا ويرسم صورا في غاية القبح لم تحدث بعد في الواقع، لكنها محتملة الوقوع بحسبان ما يسمع يوميا من جرائم واغتيالات، أو لنقل إنّ انشغاله بالأناس الذين يتصورهم مشاريع جثث قريبة ما هو إلا نوع من الهروب من الهاجس النفسي الذي كان يكابده، فالمتعارف عليه أنّ المرء مهما كانت صفته ورتبته ومكانته الاجتماعية "يحاول... عبثًا أن يهرب من التفكير في حتمية موته - فيتناسى - ذلك

بالانشغال بموت الآخر" (هلال ع.، 2005، صفحة 13) كضرب من تهدئة الروح، والترييت على النفس، والانشغال عن المخاوف بإبعاد الفكر عن كلّ ما من شأنه إثارة السؤال والقلق.

وحذر عبد الحميد بوط هنا كان في محله لأنهم عزموا على قتله ولا شيء سيردعهم، فحتى حذرهم لم يمنعهم من النيل منه، فقط منحه مزيداً من الوقت ليخاف ويرتعب أكثر، فلم يمتض وقت طويل حتى قتل بعد أن "انترع بعنف من سيارته وقذف به في سيارة أخرى، من نوع لاند روفر، كانت متوقفة في منتصف الطريق. لحظتها فقط أدرك بأنه وقع فيما يسمى بحاجز أمني مزيف. وسط أزيز الرصاص، خرجت السيارة عن الطريق، منطلقة به مع الرجال المسلحين الذين اكتضت بهم. وفيما العربية تمضي بسرعة خارقة ومضطربة باتجاه المرتفعات الغابية، أحس كما لو أن تلك السيارة هي بمثابة قدره الذي ما تحكم فيه حقيقة في يوم من الأيام" (سعدي، صفحة 110)، فمن هذا الحاجز الأمني المزيف فقد البطل حياته، وكان للجماعة المسلحة أن كسبت مكسباً عظيماً وغنمت غنيمتها بإبعاد أحد المثقفين وإزاحته عن طريقها، وبالتالي تيسير سبل السيطرة على المجتمع عن طريق إفشاء الجهل والتعتيم والتضليل وبث الذعر في بقية المثقفين؛ مما يلزمهم السكوت عن الحقيقة وغض الطرف عن المجرّيات والوقائع والسماح لتلك الجماعات والأطراف أن تعيث فساداً في وطنهم.

هكذا كانت الثقافة خطيئة لا بد أن تستتر، وجريمة لا بد من تدبيرها وإضمّارها وإلا كانت العاقبة وخيمة، بل وكانت ضريبة لا تسد إلا بالدم والروح؛ فكان بذلك المثقف عرضة لفكره وفريسة للجماعة المسلحة، وهو ما دفع به إلى أن يدسّ فكره في تراب الخوف، فالإرهاب ضد الشجاعة والجرأة؛ ضد المثقف الشجاع الجرئ الزاهد في الحياة المستمسك برأيه ومبادئه على قلب الأحوال، وعلى تصالح ووافق مع المثقف

الجبان الذي يؤخّر المصلحة الوطنية العامة لصالح المصلحة الشخصية. فالثقافة إذاً كانت سبباً كافياً لأن تزهق أرواح الكثيرين من أبناء هذا الوطن؛ الغيورين عليه والذائدين عنه وعن أمنه.

4. خاتمة:

في ضوء ما طرحته الدراسة، وعلى إثر معالجة الإشكالية البحثية المطروحة في المستهلّ نتوصل إلى جملة من النتائج والاستخلاصات المحورية التي نعدّ منها النقاط الآتية:

_ كان لتيمة الموت حضور بارز في المنجز التخيلي؛ حضور متصل ومقرون بالثقافة؛ ذلك أنّ للثقافة في زمن ما ضريبة يدفعها الإنسان ويكون ثمنها روحه، لأنّها تهدد بعض الأطراف وتسعى إلى تنوير الشعب؛ وبالتالي إلى الإبادة، فرأت هذه الأطراف أن تسكت المثقف بشكل نهائي وذلك بممارسة العنف تجاه هذه الفئة؛ فئة النخبة.

_ حمل إبراهيم سعدي همّ الوطن ووجيعته فخصص خطاباته الاستعجالية لتصور فترة العشرية السوداء في الجزائر، ومن بين تلك الخطابات رواية (صمت الفراغ) التي وقفت عند تلك المشاهد الدموية توصيفا وتصويرا، فسكبت بذلك الواقع بتفاصيله الموجعة على الورق، فارتقى المشهد الروائي بذلك من مجرد تخيل إلى تخيل راصد لزوايا الواقع ومجرياته وأحداثه.

_ صوّرت رواية (صمت الفراغ) أزمة المثقف أيام التسعينيات من خلال ممارسة مهنة الصحافة، وهي ترمي بذلك إلى الكشف عن مأساة كل المهن الدالة على ثقافة ممتهنيها، فمن فضحته ثقافته يومئذ كان مصيره الموت لا محالة من قبل الإرهاب المزدوج.

_ ورنع إبراهيم سعدي ثقل خطيئة الثقافة على جملة من الشخصيات الورقية على غرار الصحفي عبد الحميد بوط، مصورا من خلالها مأساة الإنسان الجزائري المثقف في فترة زمنية بعينها، ومصورا ضريبة الثقافة وبشاعة أن يكون المرء مثقفا في التسعينيات.

_ نقل المشهد الروائي الحالة السيكلوجية لشخصية المثقف المطارد من قبل الجماعة الإرهابية المسلحة؛ تلك الحالة من الخوف والتوجس والحذر، فمتى امتحن المثقف مهنة تشي بثقافته: كالصحافة، والتعليم، والكتابة... كان لزاماً عليه أن يحتاط؛ وذلك بالتخلص من كل ما من شأنه الوشاية به، فترى الصحفي في الرواية يتخفف من محفظته، ويتخلص من زيّه متستراً في زيّ قرويّ؛ مغيّراً منزله، واسمه، وكنيته، وهيئته، ومشيته... لا يحتك بأبناء بيئته، لا يستقر على حال نفسيّ واحد بل تراه مضطرباً يشك في كل المارين من أمامه والمحيطين به، وهذا حال كلّ من تثقّف في زمنٍ باتت فيه للثقافة ضريبة.

5. قائمة المراجع والمصادر:

- بن نبي، مالك. (1984). مشكلة الثقافة. (ط4). دمشق: دار الفكر.
- رحيم، سعد محمد. (2013). أنطقة المحرم المثقف وشبكة علاقات السلطة. (ط1). دمشق: دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع.
- سعدي، إبراهيم. صمت الفراغ. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- عبد السلام، محمد. (2017). الموت في الشعر العربي. (ط1). الرباط: مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- فريجات، عادل. (2000). مرايا الرواية دراسات تطبيقية في الفن الروائي. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- المساوي، عبد السلام. (2013). الموت المتخيل في شعر أدونيس. (ط1). دمشق: النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ومحاكاة للنشر والتوزيع.

- موسى صالح، بشرى. (2012). بوطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي. (ط1). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- هلال، عبد الناصر. (2005). تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر. (ط1). القاهرة: مركز الحضارة العربية.
- هلال، محمد غنيمي. (1997). النقد الأدبي الحديث. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.